

فيرى فريق من باحثي اللغات : ان العربية نشأت على يد القبائل البائدة التي لم يشملها الفناء والهلاك كطسم وجديس ، ويستند اصحاب هذه الفكرة الى التوافق بين النقوش المشورة عليها ، والاصوات التي امتازت بها السامية كالضاد والفين .

ويتجه آخرون الى ان يعرب بن قحطان هو اول متكلم بالعربية ، ويؤيدهم كثيرون محتجين ، بان العرب البائدة ، قد ذهبت ادراج الرياح فليس لها اثر محقق سوى الروي من قصصها في الكتب السماوية ، والنقوش على الآثار المشورة عليها . وهذا الراي منسوب الى اليمانيين الذين يمتقدون انهم اصل العرب . ويتجه جماعة الى ان اسماعيل هو اول متكلم بالعربية مستدلين بما ورد في الاثر من ان اول من نطق لسانه بالعربية اسماعيل .

وجاء في المزهر ، ان اول من تكلم بالعربية ، ونسي لسان ابيه هو اسماعيل - عليه السلام -

ويرى بعض العلماء : ان العربية هي لغة العرب العاربة ، ومنها انتقلت الى القحطانيين فالمدنانيين .

وقال فريق : ان لسان جميع من كان في سفينة نوح هو السريانية ، الا ان واحدا منهم هو جرهم ، فكان لسانه لسان العرب الاول ، فلما خرجوا من السفينة تزوج « ارم بن سام » بعض بنات جرهم ، ومنهم صار اللسان العربي في ولده : عوص ابي عاد ، ومبيل ، وجائر ابي نمود ، وجديس .

تلك آراء العلماء وقد عززت بالادلة التي وضحت لاصحابها ، ومن النظر البين فيها تتجه النفس الى ان العربية اخذت من بقايا القبائل البائدة ، فليس هلاكها مؤثرا في لغتها ، فهناك قبائل بقيت كطسم وجديس ، ولانه من غير المعقول ان يكون « يعرب » اول ناطق بها ، لانه وفد من المسراق متكلم بلغته التي تفاهم بها في وطنه الذي ارتحل عنه ، وهي غير هربية ، فترك « يعرب » للغته التي تعودها منذ نعومة اظفاره ، ليتكلم بلسان جديد هو : العربية منافع للمألوف ، ومخالف للمعروف .

كذلك لا يمكن القول ، بان اسماعيل العبري اول لاهج بها ، بناء على اثر نبوي فالطعن في هذا الحديث بناء على حال اسماعيل قوي ، ولكننا نقبله ونفسره بما يساير الواقع ، ويتفق مع الحاصل ، وهو ان اسماعيل اول ناطق بالعربية من المدنانيين

بعد تعلمها من مخالطة الجراهمة - التي هي نزرع قحطاني - عند نزوله مع امه ببطن مكة سنة الف وسبعمائة قبل الميلاد ، وعلى ذلك لا تنافي بين الاثر والواقع .

والقحطانيون وقد تلقوا لغتهم من بقايا العرب البائدة ، لم يكن لهم لسان موحد في شتى العصور لان العوامل اللغوية فعلت فعلها فتفرعت الى لهجات : اللهجة الميمنية : وهي منسوبة الى الميبيين الذين اسسوا اقدم مملكة في بلاد اليمن ، وقد اتخذوا « قرنا » عاصمة للملكم في القرن الثامن قبل الميلاد غالبا .

اللهجة السبئية : وتنسب الى السبئيين الذين قامت دولتهم القريبة على انقاض الدولة الميمنية ، وقد اتخذوا « مارب » عاصمة لهم .

اللهجة الحميرية : وهي منسوبة الى الحميريين الذين نازعوا السبئيين الحكم امدا طويلا .

اللهجة القتبانية : وهي منسوبة لقبائل قتبان التي نشأت مملكتها في المنطقة الساحلية شمال « عدن » .

اللهجة الحضرمية : وهي منسوبة الى قبائل (حضرموت) وقد انشأوا مملكة قوية نازعت « سبا » السلطان .

فالقحطانيون تلقوا هذه اللغة ، من بقايا القبائل العربية البائدة ، وقد توسعوا فيها حسب مطالب الحياة ، واخذها المدنانيون عنهم ، لجوارهم لفرع قحطاني وهو « جرهم » .

فالعربية عريقة في القدم والثبت ، لها تاريخ ممتد طويل في الزمن الماضي وان التاريخ الطويل يعطي اللغة فاعلية اكثر ، وتفاعلا اسلم ، وتبلورا وتناسقا مع مقتضيات الزمان ، ومتطلبات الحياة .

ومصادر اللغة العربية الاساسية : يمكن ان نستقيها من القرآن الكريم والشعر والامثال والقصص .

اما القراءان فضلا عن كونه احدث تغييرا جذريا في التفكير العربي في جميع مناحي الحياة ، فقد كان مصدرا عظيما للغة التي اثنائها بمصطلحات كثيرة ، وبأسلوب جديد ، وكثير من هذه المصطلحات والاساليب يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين والعقائد والعبادات والمعاملات .

وكان النبي - عليه الصلاة والسلام - يقدم هذا الأسلوب - المنزل عليه في صورة وحي - كأخبار أو جواب عن أسئلة يثيرها العرب « يسألونك عن الأهلة - يسألونك عن الشهر الحرام - ويسألونك ماذا ينفقون - يتساءلون عن النبا العظيم » إلى آخر تلك الأسئلة .

وفي عهد الرسول لم تثر أسئلة كثيرة حول نصوص القرآن ، فكان على الصحاب ان يأخذوا على انفسهم نقل هذه المسؤولية ، فلم يقدم على ذلك الا قليل منهم كعكرمة ، وابن عباس الذين تصديا للجواب على كثير من الاسئلة التي اثارها المستفسرون .

والتار الخلاف في قراءة القرآن مشكلة ظهور عدة روايات ، تنقلت عن جماعة معينة من القراء ، واحتفظت الآيات بوجه عام بصورتها الحقيقية ، وانما كان الخلاف يتعلق بالحركات ، لا بجوهر اللفظ نفسه ، ومهما يكن من شيء فان القرآن كان مرجعا اساسيا لرواة اللغة الذين اتمدوه كنقطة استقرار واستنتاج ، وقد حفظ عدد من الاستعمالات التي لم تعد اليوم جارية في الأسلوب العربي مثل : « ان هذان لساحران - قال رب ارجعون - والارض فرشناها - فقد صفت قلوبكما » .

وكل هذه الاستعمالات وغيرها كان يستشهد للتدليل على صحة ما يقابله من غير القرآن .

ولم يحظ الحديث بمثل هذه الحظوة ، ومع ذلك فتوجد تراكيب مشهورة وردت قصدا أو ضمنا في احاديث النبي ، حتى قيل انها لم تسمع من غيره من قبل ، ومنها : « مات حتف انفه - الحرب خدمة - لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

واما الشعر : فنصدر بالغ الاهمية للغة ، حتى قيل انه لولا الشعر لضاع نصف اللغة ، وانما ظل الشعر مصدرا للغة لسهولة حفظه وروايته ، ولانه لا يحتمل المكذوب والمدسوس ، مثلما يحتمله النثر ، واذا كان الشعر لم يسلم من التحريف والانتحال ، فان بعض الادباء عمدوا الى جمع كثير منه كتابة في وقت متأخر نسبيا ، كابي تمام « الحماسة » وابي فرج الاصفهاني « الاغانى » والذين تصدوا من جماع اللغة للتأليف في هذا الباب ، عمدوا الى الاستشهاد بالشعر ، كما فعل النحاة ايضا ، وهكذا استشهدوا بالشطر التالي على ان « عرب » تطلق على الذكر والانثى .

يا من يدل عربا على عرب

كما استشهدوا في مخاطبة الواحد بلفظ التثنية بقول سويد بن كراع :

فان تزجراني يابن عفان انزجر

وان تدعاني احم مرضا ممنما

وقس على هذه الامثلة ، وقد كان ابن عباس يقول : اذا قرأتم شيئا من كتاب لم تعرفوه ، فاطلبوه في اشعار العرب ، لان الشعر ديوان العرب .

والشعر : هو الكلام الموزون على روي واحد المقوم على حدو واحد لا يخالف بعضه بعضا في الوزن والروي ، وسموه شعرا ، لانه الفطنة بالفواض من الاسباب ، وسموا الشاعر شاعرا : لانه كان يظن لما لا يظن له غيره ، من معاني الكلام وأوزانه ، وتأليفه واحكامه وتثقيفه ، فكان لا يفوته من هذه الاسباب كلها شيء قال معترة :

هل غادر الشعراء من متردم

ام هل عرفت الدار بعد توهم

يعني ان الشعراء لم يدعوا شيئا ، الا وفتنوا له ، يقال شعرت بالشيء اذا فطنت له ، قال الكسائي في قوله تعالى : « ولكن لا تشعرون » شعرت بالشيء شعرا وشعورا ، وبعضهم يقول مشعورة ، وقال ابو سعيد : هو شعرة فحذفوا الهاء : قال وهو مثل : الدرية والفطنة ، وهو على وزن « فعلة » قال : وقيل شاعر لانه يشعر بالشيء ويفطن له ، قال : ومنه قولهم : « ليت شعري » أي ليتني اشعر به .

وسموا الكلمات المنظومة المؤلف بعضها الى بعض « قافية » وجمعها « قواف » قال النابغة :

قوافي كالسلام اذا استمرت

فليس يرد مذهبها التظني

يمنون بالقوافي : الكلام الذي يقفو بعضه بعضا على مثال واحد ، ثم سموا اجتماع القوافي « قصيدة » قال جرير :

في ليلتين اذا حدوت قصيدة

بلغت عمان وطيه الاجيال

يعني بالقصيدة : الكلمة التي ملئت بالمعاني ، وكثرت فيها الالفاظ المستحسنة يقال ناقة قصيدة أي مثلثة كثيرة اللحم سمينة ، فكانهم شبهوا القصيدة بذلك ، قال الشاعر :

نظمت وصاحبي سرح كزاز

كركن الرهن ذعلبة نصيد

فأي لغات الأمم لها كلفة العرب هذه الأسباب اللطيفة ، والمناقب الشريفة التي خصت بها ، وأي أمة جعلت لغتها هذه الحوزة ، واتخذت لها هذه الدراوين ، واحتاطت لها هذا الاحتياط .

فالعرب تكلموا بالشعر الرصين ، المحكم المعاني ، الموزون بالمعروض ، المقوم بالانحاء ، من غير أن يعرفوا عروضاً أو نحواً ، أيدهم الله بقلبه ، والمهمهم وزنه ، حتى أبرزوه بألفاظ حسنة ، ومعان متقنة ، وقواف موزنة ، ومصاريع مستوية ، فرواه أهل اللب والادب منهم ، وقبلة أهل الشرف والحسب عنهم ، وجعلوا رويهم في ذكر الاحساب والمآثر ، ومدح الملوك والعظماء ، والتبلاء من الناس ، وفي ذكر المثالب والسباب ، وهجاء أهل الضغائن والاحقاد ، وفي ذكر الوقائع والحروب .

ونشر كل شاعر محاسن قبيلته ومفاخرها ، ومساويء أهل الشتان والبغضاء لهم ، واستفتحوا كلامهم بذكر النسيب ، وبسطوه بصفات الديار والقفار والتجع والامطار ، ونعت الخيل والابل والوحش ، وغير ذلك .

فنعيت بالشعر الالفاظ الغريبة والمصاني اللطيفة ، وحفظ الرواة عنهم كثيراً من ذلك الشعر ، ودونوه ورواه السلف للخلف ، واعتنى به الخلف عن السلف .

وأما الامثال : فتعتبر كذلك من المصادر الاصلية للغة العربية ، وللعرب منها الشيء الكثير ، وهي ذات اهمية بالغة من حيث ارتباطها اجتماعياً وادبياً بحياة العرب كما أن كثيراً منها يصلح تطبيقه على غير العرب من الأمم والافراد فتقولهم : « الحرب خدمة - ومعظم النار من مستصفر الشر - ولا يطاع لقصير امر » . وقد اخذت كثير من دول أوروبا عدداً من الامثال العربية .

وأما القصص : فرواه كل مثل قصة ، حفظت كتب الامثال منها وخصوصاً كتاب «مجمع الامثال» للميداني (517 هـ) ، والقصص تمثل بدورها نماذج صادقة من تفكير العرب وآدابهم واهميتها اللغوية تتمثل فيما شملته من غريب اللفظ ، وجمال الاسلوب ، واحسن مرجع لها هو كتاب « الامالي »

لابي علي القالي ، وكتاب « الالغاسي » لابي فرج الاصفهاني ، وكتاب « البيان والتبيين » للجاحظ .

وخلصة القول : ان القرآن والشعر والامثال والقصص ، كل منها قد أدى دوراً بارزاً في حفظ اللغة وتقويتها ، الا ان جميع الدراسات اللغوية اثبتت في وضوح ان سبب نشأة اللغة العربية ونموها واتساعها وشمولها وتبلورها وتطورها ، هو : القرآن الكريم قبل غيره ، وذلك ان الفاظ كثيرة ، يرددها القرآن كانت مشار أسئلة المسلمين منذ عهد الرسول وكان بين هذه الالفاظ ، ما هو غير عربي ، ثم كان المعنى اللغوي يتعين فهمه ، قبل الاقدام على التاويل الشرعي ، فنشأ عن ذلك العناية بتفسير القرآن الكريم .

واختلفت الروايات في قراءة القرآن ، فنشأ عن ذلك علم القراءات التي كانت ذات ارتباط ولبق بالنحو ، واخيراً فان وضع قواعد النحو كان ضرورياً لحفظ آيات القرآن على صورتها الاصلية ، وبقطع النظر عن تمدد القراءات . ولحسن الحظ فقد كان العرب يفتنون الى ضرورة تدوين أكثر ما يمكن من الاشياء التي يخشون على ضياعها بسرعة ، كما فعلوا في تدوين المصحف مثلاً ، فقد بدأوا في ذلك منذ عهد ابي بكر الصديق ، وهذا يدل على ان العرب كان فيهم عدد ممن يحسن الكتابة والقراءة ، بل يمكن ان يفهم من تعليم أسرى مكة لصبيان المدينة اثر معركة بدر الكبرى ، ان الكتابة والقراءة كانتا تنتشران بمكة التي هرفت قبل المدينة ، ومن ثم لتدوين العلوم المتصلة بالقرآن ، قد سبق تدوين غيرها من العلوم .

وبالرغم من ان الكتابة كادت تكون مجهولة ، في باقي اجزاء شبه الجزيرة العربية ، فان الالفاظ اللغوية التي حفظتها القواعد تشكل ثروة هائلة . ولقد كانت لغة الشعر كما يقول : « بروكلمان » اشبه ما يكون بنهر جداوله هي اللهجات المحلية للقبائل ، والتي اشتقت من العمين نفسها .

وإذا كان للقرآن الفضل في انتشار اللغة العربية بشكل لم تكن تعرفه لغة اخرى في العالم ، فان الموارد الاخرى التي استقى منها الرواة ودارسوا اللغة الاولون قد ادت بدورها خدمة للعربية لا ينكر .